الشيخ محمد الخضر حسين حياته وأعماله

الأستاذ الدكتور محمد خان
جامعة بسكرة – الجزائر.

أولاً – حياته

3 – 1 – مولده ونشأته[1]

ولد محمد الاخضر بن الحسين بن علي بن عمر في 26 رجب عام 1293 هـ الموافق (21 جويلية عام 1873 م) ، بمدينة نفطة (إحدى واحات الجنوب التونسي) . قال : " ولدتُ في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي ، يقال لها نفطة "[2]. وأصله من الجنوب الجزائري ، من مدينة طولقة (بسكرة) ، حيث أسّس بها جدّه الشيخ علي بن عمر الزاوية العثمانية الرحمانية . وأسس جدّه لأمه الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز، العالم الفقيه ، زاوية نفطة على الطريقة الرحمانية ، وخاله هو الشيخ محمد المكي بن عزوز، الذي ولد بنفطة ، وتعلّم بها ، وتخرّج بجامع الزيتونة ، وهاجر إلى أسطنبول ، (ت 1333هـ)[3].

نشأ في بيت علم وأدب من جهتي الأم والأب ، كما أن نفطة في ذلك الزمن كانت موطن العلم والعلماء ، فتربّى في هذه البيئة طالبا للعلم ، مجتهداً في تحصيله ، فحفظ القرآن الكريم ، وتلقى العلوم الدينية واللغوية على يد عدد من العلماء ، وبخاصة خاله الذي كان يرعاه ، ويُعنى به كثيرا . ولمّا بلغ الثالثة عشرة من عمره انتقلت عائلته إلى تونس ، فانضمّ إلى جامع الزيتونة ، وكان من أشياخه محمد النجار (ت 1909 م) ، وعمر بن الشيخ (ت 1911م) ، وسالم بوحاجب (ت 1924 م) . تحصّل منه على شهادة التطويع عام 1898م . وتولّى التدريس بالزيتونة[4]، وكان له دور كبير في حركة إصلاح التعليم . كما نال شهادة العالِمية عام 1928 من الأزهر . ووصفه قرار اللجنة التي امتحنته بأنه بحر لا ساحل له . ودرّس بالأزهر مدة 22 سنة إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1950 . وعُرف باسم

محمد الخضر حسين ، حيث حذف لفظ (ابن) على طريقة المشارقة.

تزوج بأربع نساء : الأولى طلّقها في تونس ؛ لأن أهلها رفضوا أن يصحبها معه إلى الشام ، والثانية تزوجها في دمشق وطلقها ، والثالثة عاشت معه ثلاثين سنة في مصر ، وتوفيت ، فتزوج الرابعة من أهل المتوفية.

وللشيخ ثلاثة إخوة أدباء فضلاء تركوا تونس ، واستقروا بالشام منهم العلامة زين العابدين الذي كان يدرّس في الجامع الأموي ، والعلامة اللغوي محمد المكي .

3 – 2 - سيرته وأخلاقه[5]

أجمع معاصروه على صلاحه و تقواه ، وكرم أخلاقه ، وغزارة علمه ، وصدق نواياه ، وطهارة سريرته . أفنى عمره في خدمة الاسلام . إنه شيخ الأزهر، والإمام المفسر، والفقيه المحدث ، والخطيب المصلح ، والأديب واللغوي[6].

كانت أخلاقه كريمة ، ونفسه أبيّة ، وهمّته عالية ، يتميّز بالتواضع ، ولين الجانب ، وحسن المعشر . كان هادئ الطبع ، قنوعا زاهدا . صاحب غيرة وحمية على الإسلام. وكان من حفظة القرآن الكريم المجيدين ، متفنناً في علوم الشريعة من فقه ، وأصول، وتفسير، ونحو ذلك . لقد أوتي بياناً ساحراً ، وقلماً سيالاً، قلما يوجد له نظير في العصور المتأخرة ، بل إنه يضارع أرباب البيان الأوائل، كان إماماً من أئمة اللغة العربية في العصور المتأخرة ، وفذاً من أفذاذ علماء الإسلام كما قال عنه العلامة محمد الطاهر بن عاشور ، رحمه الله[7].

3 – 3 - بين الإقامة والرحلة

4 – 1 - من تونس المنطلق

نشأ الشيخ محمد الخضر حسين مجلة السعادة العظمى عام 1904م ، وكان يكتب أغلب مقالاتها ، وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس ، وكانت تصدر كل نصف شهر

(صدر منها 21 عددا) . ومن مميزاتها أنها كانت تدعو إلى الاجتهاد ، وتمجد الفكر الجيد ، وقد لقيت بعض النقد من الجامدين ، وفي سنة 1905 م . ولِيَ قضاء مدينة بنزرت ، والتدريس في مسجدها الكبير، ثم استقال ، وعاد إلى مدينة تونس ، وتطوّع للتدريس في جامع الزيتونة، وأُسند إليه تنظيم خزائن كتب الجامع ، كما درّس في مدرسة الصادقية ، وهي الثانوية الوحيدة . وشارك في تأسيس الجمعية الزيتونية سنة 1906، التي كان يرأسها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وكان من خطبائها المفوّهين، فانبهر الناس بفصاحته ، وسعة علمه . ثمّ عُيّن مدرّسا رسميّا بجامع الزيتونة[8]. حاضر في موضوعات جد هامة ، مثل : الحرية في الإسلام، وحياة اللغة العربية، ونشر كتاب " الدعوة إلى الإصلاح سنة 1910 م

زار الشيخ الجزائر سنة 1903 ثم سنة 1904 ، وزار كثيرا من مدنها وقراها ، وألقى بها دروسا مفيدة ، فعرضت عليه سلطات الاستدمار أن ينضم إلى المحكمة الفرنسية، فرفض بشدة ، لذلك وجهت له تهمة العداء للغرب ، وخاصة سلطات الحماية الفرنسية . فأحس بأن حياته في خطر ، فترك تونس ، وسافر إلى أسطنبول متظاهرا بزيارة خاله الشيخ المكي المهاجر هناك . ولما تناهى إليه أن تونس هدأت أحوالها عاد إليها عن طريق نابولي الإيطالية . لكن وجد الحياة الاجتماعية ازدادت تعقيدا ، حيث اشتدت الأزمة وتصاعدت المواجهات بين التونسيين وقوات الحماية الفرنسية ، وفرضت الأحكام العرفية والعسكرية . وكان الفرنسيون قد حكموا على الشيخ بالإعدام غيابيًّا ، متهمين إياه أنه حرّض المغاربة في ألمانيا وتركيا على الثورة ضد الفرنسيين في شمال افريقيا[9] .

4 – 2 - في دمشق الشهرة

وفي سنة 1912 اضطر إلى أن ينتقل إلى دمشق ، فالتحق بأسرته ، ثم غادرها إلى الحجاز بالقطار للحج ، وزار ألبانيا ، ودار البلقان ، ثم ذهب إلى الأستانة (تركيا) . وقضى في دمشق ثماني سنوات ، حيث شارك في الحياة الثقافية ، ودرّس في الجامع الأموي ، والمدرسة السلطانية ، وفي أرقى المدارس الرسمية والأهلية . وعُيّن عضوا عاملا في إحدى لجان المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه سنة 1919م. وسجنه جمال باشا والي دمشق العثماني سنة 1916 م ، متهما إياه بالتآمر على السلطة الحاكمة ، وبعد ستة أشهر

خرج من السجن ، وعاد إلى التدريس في الجامع الأموي والمدرسة السلطانية[10].

4 – 3 - في ألمانيا شرف المهمة

ثم طلبته وزارة الحربية العثمانية - أثناء الحرب العالمية الأولى- للعمل فيها مُنشئًا للرسائل العربية، فغادر دمشق إلى إسطنبول، ومن هنالك أرسلته الدولة العثمانية إلى ألمانيا مع مجموعة من المشايخ في مهمة سياسية تتمثل في تحريض الجزائريين والتونسيين هنالك ضد الوجود الفرنسي في شمال إفريقيا ، وضد الإيطاليين في ليبيا، فبقيَ تسعة أشهر، تعلم فيها اللغة الألمانية ، واطّلع على عادات المجتمع الألماني، ثم عاد إلى إسطنبول ، فمكث فيها قليلاً، ثم عاد إلى برلين ليقيم فيها سبعة أشهر أخرى إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى ، وسقطت اسطنبول بأيدي الحلفاء . وقد حضر افتتاح مسجد للجنود المسلمين في برلين عام 1917 م . كما شارك أثناء إقامته في ألمانيا بكتابة تقرير مفصل عن مطالب الشعب الجزائري والتونسي، وقد رُفع هذا التقرير إلى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا[11]...

وقد زار كثيرا من المؤسسات التعليمية ، والتقى ببعض المستشرقين ، واستمع إلى محاضراتهم ، ودرس علوم الطبيعة والكيمياء على يد المستشرق الألماني البروفيسور هاردر . وتحدّث عن الحياة الألمانية في شتّى ميادينها ، وبيّن خصائص اللغة الألمانية وآدابها ، وترجمة القرآن الكريم إليها ، ونشرها في كتاب ، عنوانه : " مشاهد برلين "[12].

4 – 4 - في مصر الاستراحة

عندما دخلت فرنسا بلاد الشام سنة 1920م - وكانت قد حكمت على الشيخ بالإعدام غيابيا - غادرها متوجها إلى مصر، وفي القاهرة كانت له مشاركة كبيرة في الحياة الفكرية والدينية والثقافية عموما، وشارك في الجدل القائم آنذاك بين رجالات الثقافة والفكر. في البداية عمل مصححًا بدار الكتب المصرية بشفاعة أحمد تيمور، الذي ربطت بينهما صداقة متينة ، وترأس تحرير بعض المجلات : مجلة الهداية الإسلامية ، ونور الإسلام ، ولواء الإسلام ، ومجلة الشبان الإسلامية ، ومجلة الأزهر.وأنشأ "جمعية تعاون جاليات إفريقيا

الشمالية" التي تهتم بالمغاربة من الناحيتين الثقافية والاجتماعية، وذلك سنة 1924 ، كما ألف جمعية "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية " سنة 1944[13].

عُين رئيسا للجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932 م . وعضوا في لجنة الآداب والفنون ، وعضوا في جماعة كبار العلماء عام 1951 م . وتُوّج أخيرا شيخا للأزهر عام 1952 م . واستقال منه عام 1954 م . بسبب إلغاء القضاء الشرعي ، ودمجه في القضاء الأهلي ، ونستمع إليه ، وهو يقول عن وظيفته في الأزهر : " إنّ الأزهر أمانة في عنقي ، أسلمها موفورة كاملة ، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد الازدهار على يديّ ، فلا أقلّ من ألاّ يحصل له نقص "[14].

محمد الخضر حسين من العلماء القلائل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة ، وثاروا على الركود المنهجي في أروقة الأزهر . إنه قد عاش منقطعا للعلم ، متعلما ومعلما ، كاتبا ومحاضرا ، محاورا ومجادلا ، مؤثرا ومتأثرا ، مدافعا عن الدين الإسلامي ، واللغة العربية . حتى وافاه الأجل في القاهرة ، يوم 13 رجب 1377هـ (02 فيفري 1958 م) . ودُفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بناءً على وصيته[15].

ثانيا - أعماله العلمية

كتب مقالات كثيرة ، وحاضر في ملتقيات عديدة ، وألّف الكتب ، ونشر منها في حياته ، ونشر بعضها بعد وفاته . وشارك مشاركة فعالة في الحياة الفكرية والثقافية في عصره . قام بجمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني ، وأصدرها باسم موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين ، شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب ، في 15 مجلّد (الطبعة الأولى 2010 م، 1431 هـ ، دار النوادر، دمشق) .

المجلد الأول : تصدير الموسوعة . ترجمة الإمام محمد الخضر حسين . ترجمة الجامع والمحقق لأعمال الإمام .

المجلد الثاني : بلاغة القرآن . دراسات في الشريعة الإسلامية.

المجلد الثالث : محمد رسول الله وخاتم النبيين. تراجم الرجال.

المجلد الرابع : الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان. محاضرات إسلامية ، وهي : (الحرية في الإسلام ، علماء الإسلام في الأندلس ، السعادة عند بعض علماء الأندلس ، التصوف في القديم والحديث...)

المجلد الخامس : رسائل الإصلاح . الدعوة إلى الإصلاح.

المجلدالسادس : دراسات في اللغة العربية وتاريخها . دراسات في اللغة.

المجلد السابع : الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية . ديوان خواطر .

المجلد الثامن : نقض كتاب في الشعر الجاهلي.

المجلد التاسع : نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم. جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية . القاديانية والبهائية.

المجلد العاشر : الهداية الإسلامية : (آداب الحرب في الإسلام ـ الروح العسكرية في الإسلام ، الطب في نظر الإسلام ، حقوق الزوجية في الإسلام ، القضاء العادل ، مكانة القضاء ....كلمات وخواطر وآراء .

المجلد الحادي عشر : تونس وجامع الزيتونة.من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين (رسائل الخضر)، الرحلات.

المجلد الثاني عشر : هدى ونور . السعادة العظمى. المغني عن الحفظ والكتاب.

المجلد الثالث عشر : الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين.

المجلد الرابع عشر : كتابات حول الإمام الخضر حسين.

الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر.

المجلد الخامس عشر : ملتقى الإمام الخضر حسين في الجزائر. الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي (تونس) .

الدراســات الدينيــة والأدبيــة

4 - 1 - في القرآن وتفسيره وبلاغته وإعجازه

كتب عن التفسير وأنواعه وشروطه ، وفسّر جزءاً كبيرا من سورة البقرة ، وترجمة القرآن الكريم ، وناقش بعض المتأولين ، كما تكلم عن بلاغة القرآن الكريم ، وعن نزوله وإعجازه ، وعن نزوله على سبعة أحرف ، وفي أمثاله ، ومحكمه ومتشابهه وفي قصصه وفي حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم (سنتحدث عنه لاحقا) . وتحدث عن العقائد والأصول والعبادات والمعاملات وسدّ الذرائع ، وعن الصلاة والزكاة، كما تحدث عن الحرية في الإسلام وعلماء الإسلام في الأندلس، والتصوف في القديم والحديث والسنة والمعتزلة ، وغيرها من الموضوعات[16].

4 – 2 - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم

قام كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة سنة 1924 ، وأنشأ دولة تركيا العلمانية . فاتجهت الدعوات إلى إعادتها بتولي الملك فؤاد الأول (ملك مصر) خليفة للمسلمين ، وحينئذ أصدر علي عبد الرازق كتابه " الإسلام وأصول الحكم " سنة 1925 ، وفكرته الأساس أنّ الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات إسلامية حديثة ، فقامت عليه أقلام العلماء في مصر ، واتُهم بالزندقة ، وفُصل من الوظيفة . وردّ عليه الشيخ محمد الخضر حسين بكتابه الشهير " نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم " ، سنة 1925 . فنال به مكانا عليًّا عند العامة والخاصة ؛ لأن المسلمين مع إعادة قيام الخلافة[17].

4 – 3 - نقض كتاب في الشعر الجاهلي

نشر طه حسين مؤلفه المشهور " في الشعر الجاهلي " سنة 1924 ، فكان صادما في نتائجه التي تفيد بأن معظم الشعر الجاهلي منحول ، ويرجع ذلك إلى خمسة أمور : السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، فغضب عليه العلماء ، وثاروا ضد كتابه ، فردّ عليه الشيخ بمبحثين : مبحث في المنهج الذي انتهجه في كتابه ، ومبحث في الأدلة التي ساقها أثناء التعليل ، في مؤلف عنوانه " نقض كتاب في الشعر الجاهلي " فكان من

أقوى الردود عليه بالحجة والدليل[18].

4 -4- في البلاغة والنقد

كتب مجموعة من البحوث تتعلق بعلوم القرآن ، كما نشر مقالات ردّ بها على بعض معاصريه ، منها الردّ على كتاب " الفن القصصي في القرآن " لمؤلفه محمد أحمد خلف الله . وكذلك الرد على " تحريف آيات الحدود عن مواضعها " لعبد العال الصعيدي . ووجّه نقدا مباشرا لكتاب " امرأتنا في الشريعة والمجتمع " لمؤلفه الطاهر حداد[19].

يربط بين المباحث النحوية والبلاغية أثناء تفسيره القرآن الكريم ، وبين الابداع وفنون الكلام .والكلام يقسم حسب أغراضه ، وطرق الترقي في الكتابة وفي نشأة البلاغة

دراسات في اللغة العربية وتاريخها

5 – 1 - القياس في اللغة العربية

وهو كتاب صغير الحجم في أصله دروس ألقيت على الطلبة في دمشق عام 1914 ونشرت مقالات في "مجلة المنار" عام 1920 . ثمّ جمعت في كتاب تحت هذا العنوان . وصدرت طبعته الأولى عام 1934 . ونال به العضوية في هيئة كبار العلماء بالقاهرة عام 1951 . تناول في مقدمة الكتاب فضل العربية ، ومدى مسايرتها للعلوم والمدنيّة ، وحال اللغة العربية في العصر الجاهلي ، ومدى تأثير الإسلام فيها ، ثمّ تحدّث عن فضلها وخصائصها . تحدّث فيه عن تعريف القياس ، وأنواعه وأركانه ، والقياس في صيغ الكلم واشتقاقها، وعلى نظم الكلام ، وعن العلاقة بين القياس النحوي واللغوي ، وركّز على مبحث الحاجة إلى القياس في اللغة قال : " من أهميته تمكين الإنسان من النطق بآلاف الكلم والجمل دون أن تقرع سمعه من قبل ، أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللغة ، أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها " [20]

فالقياس من أخطر وسائل نمو اللغة وتطورها ، وهو وسيلة المتكلم لإنتاج مالا ينحصر من الجمل التي لم يسمعها من قبل . لذلك يدعو إلى فتح باب القياس في نظم الكلام ، بسبب أهميته في تنويع الأساليب وما يعرض للكلم من نحو التقديم والتأخير، والاتصال والانفصال والإعراب والبناء ، والذكر والحذف ، وختمه بجواب عن اقتراح تقدّم به عبد القادر المغربي حول الكلمات غير القاموسية . وتحدث عن اسم المصدر في المعاجم ، وعن تكملة بعض المواد اللغوية ، التي ورد بعضها في معجمات ، وأهملتها معجمات أخرى ، وحدد طرائق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها[21].

5 – 2 - حياة اللغة العربية

هي مقال طبع ضمن كتاب دراسات في اللغة العربية وتاريخها ، وفي أصله محاضرة ألقاها سنة 1909 ، في الجمعية الصادقية بتونس ، ردّ بها على من حكم على اللغة العربية بالموت ، وأنها لاتساير المدنية ، وقد أثبت الشيخ حياتها ، وتناولها من حيث تأثيرها في الهيئة الاجتماعية ، وأطوارها وفصاحتها ، ومحكم وضعها وتراكيبها ، ودلالة ألفاظها ، وموقعها من لغة العامة ، ثمّ ضم إلى إلى هذه المحاضرة قصيدة تحت عنوان " حياة اللغة العربية "[22].

وكذلك تحدث في مقام آخر عن نشاة اللغة وحقيقتها وعلاقتها بالفكر ، وفي وظائفها وفي خصائصها ، والحديث عن لغة موحدة الاسبرانتو" وفي حقيقة اللغة العربية وفضلها ومسايرتها للمدنية وفي أطوارها وفي حقيقة الفصاحة والملكة اللغوية وان السمع أبو الملكات وفي اللهجات والفصحى .

5 – 3 - دراسات في اللغة

يضم الكتاب اثنتي عشرة مقالة ، منها سبع مقالات نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية ، وأربع مقالات نشرت في مجلة الهداية الإسلامية ، ومقالة واحدة نشرت في مجلة نور ،تناول فيها القضايا الآتية : المجاز والنقل واللهجات والأمثال واسم المصدر وجمع غير العاقل بصيغة

فعلاء ، ونيابة بعض الحروف عن بعض[23].

وتحدث عن علماء اللغة الذين وثق فيهم ، والذين طعن فيهم ، ووجّه نقدين : أحدهما موجّه إلى الاقتراح الخاص ببعض الإصلاح في متن اللغة ، وثانيهما خاص بالإعرابين الجديدين في صيغة التحذير ، ثمّ تحدّث عن الألفاظ المؤنثة سماعاً .

5 – 4 - في النحو العربي وأصوله

الأستاذ إبراهيم مصطفى كتابه إحياء النحو عام 1937 . وطرح فيه مجموعة من الأفكار التي لم يتقبلها علماء عصره . يرى إبراهيم مصطفى : أن النحاة القدماء لم يدرسوا بدقة أساليب الإثبات والنفي، والتأكيد والتقديم والتأخير بل غلب عليهم الاشتغال بالإعراب ، وزادوا في جفاف النحو بفصله عن علم المعاني، وخاصة بعد الجرجاني (دلائل الإعجاز) . ويرى أن موضوع علم النحو أوسع مما ذكره النحاة القدماء، فالنحو يُعنى بأحوال الألفاظ من حيث دلالتها على المعاني التركيبية التي تستفاد من علاقات الإسناد "وإما عن المركبات على الإطلاق، فأما باعتبار هيئتها التركيبية، وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو. وأما إفادتها لمعان مغايرة فعلم المعاني" .[24]

ويذهب إلى أنّ " الرفع علم الإسناد، والجر علم الإضافة، والفتحة ليست بعلم على الإعراب، ولا دالة على شيء، لأنها الحركة الخفيفة التي استحبتها العرب لخفتها، والضمة والكسرة علامتان دالتان على المعنى. وليست الفتحة أو السكون.

إنّ النحو العربيّ تاثّر بمناهج السريان ، وإن النحاة قد قصروا النحو على أواخر الكلمات، وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طرقا منحرفة إلى غاية قاصرة، وضيعوا كثيرا من أحكام نظم الكلام، وأسرار تأليف العبارة[25].

قام الشيخ محمد الخضر حسين بمناقشة الآراء الواردة فيه، ونشرها في مقال بعنوان" موضوع علم النحو، وكتب في حقيقة النحو العربي وموضوعه ، وجهات البحث فيه . وفي النحو العربي ومناهج السريان ، ومناقشة اقتراح تيسير النحو عند المحدثين ، وإصلاح في

متن اللغة ، وفي مصادر الاستشهاد (القرآن الكريم وقراءاته والحديث النبوي وكلام العرب) وفي حقيقة القياس وأركانه والحاجة إليه ، وفي حقيقة العلة وموقفه منها [26].

ردّ على تأثر النحاة بالسريان بقوله " هذا شئ ظنه جرجي زيدان ، فالتقطه المؤلف من ورائه ، وجاء به على أنه قضيّة مسلّمة ": "فالمسالة لم تزل في حدود الافتراض ، وليس لها شبهة سوى أن واضعي علم النحو من العرب كانوا بالعراق بين السريان والكلدان[27] وان اقسام الكلام في العربية هي اقسام الكلام في السريانية ، ولكن كتاب احياء النحو لايبالي ان يسوق المشكوك فيه مساق المعلوم او يورد المعلوم في صورة المشكوك فيه."

وغيره من الكتب والمقالات مثل محمد أحمد خلف الله في كتابه " الفنّ القصصي في القرآن الكريم " ، وأحمد امين في مقاله بعض الإصلاح في متن اللغة " ، وعبد القادر المغربي في مقاله " الكلمات غير القاموسية " .

5 – 5 - لجنة لتيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة

كونت وزارة المعارف بمصر، لجنة لتيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، تتألف من طه حسين وأحمد أمين وعلى الجارم وإبراهيم مصطفى ومحمد أبي بكر ابراهيم المفتش بالوزارة.

وتعلق عملها بالمسائل الآتية:

1- ألقاب الإعراب والبناء.

2- العلامات الأصلية للإعراب والفرعية.

3- الاستغناء عن الإعرابين: التقديري والمحلي.

4- متعلق الظروف وحروف الإضافة.

5- الضمير.

6- التكملة.

7- الأساليب.

تدعو اللجنة إلى إلغاء العبارات: مرفوع، منصوب، مجرور بحركة مقدرة منع من ظهورها التعذر أو الثقل، أو اشتغال المحل بالحركة المناسبة أو الحكاية. وتعليله أن العلاقة لا تظهر، وتوفير الجهد للتلميذ[28] .

يرد الشيخ بمقال نشرته مجلة " الهداية الإسلامية " يقول فيه : " اطلعت على تقرير اللجنة التي ألفتها وزارة المعارف للنظر في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، فمررت في أثناء قراءاته على عبارات يخالطها شيء من الغموض، وآراء لا يظهر لها وجه في تيسير القواعد، بل آراء أرادت اللجنة أن تستبدلها بأصول اتفق عليها النحاة " [29]

وكان رده يرتكز على آراء النحاة القدماء، وقد ذهب مذهبهم في القياس والتقدير، وأن يحمل لفظ عيسى وهو مبتدأ على لفظ محمد ، وهو مبتدأ مثلا. فالحالة الرفع، والعلامة تقدر اعتمادا على مثيله عندما تظهر. يقول: " فإذا وقع المقصور أو المضاف أو المبني أو الجملة موقعا يقتضي وجها خاصا بالإعراب، كالفاعلية والخبرية، ثم تلاه تابع قد ظهر فيه هذا الوجه الخاص، وهو الضم، أفلا يكفي هذا دليلا على الوجه نفسه ملاحظ في المقصور، وما عطف عليه من الألفاظ التي لا يظهر فيها الإعراب[30].

ترى اللجنة أن العلامات كلها أصلية، فلا داعي للنيابة في مثل الأسماء الستة والممنوع من الصرف، وجمع المؤنث السالم، والمثنى وجمع المذكر السالم.

ويكتفي في رده بما قرره النحاة القدماء، إذ أن الأصل في الإعراب عندهم بالحركات (لأن الحركة أخف من الصرف) وأبين في الدلالة على مفهومها بخلاف الحرف كألف المثنى وواو الجماعة، فإن لها دخلا في الدلالة على مفهوم الكلمة إذ بسقوطها يختل المفهوم، والعلامة التي تختص بالدلالة على معنى لا تتعداه إلى غيره أقوى من علامة تشعر به مع دلالتها على شيء آخر[31] ".

ودعت لجنة التيسير إلى استعمال مصطلح علماء المنطقة، وذلك باستعمال: الموضوع والمحمول " وبهذا النحو من التقسيم للجملة من موضوع ومحمول، واعتبارات إشارات العدد علامات لا ضمائر يسرت اللجنة الإعراب وقللت الاصطلاحات، وجمعت أبواب الفاعل

ونائبه والمبتدأ واسم كان واسم إن في باب المحمول[32]. وعلامات العدد التي تلحق الفعل في الجمع: الواو للذكور، والنون للإناث، وفي المثنى: الألف لهما. وفي المفرد: التاء للواحدة. وتأخذ اللجنة في ذلك برأي المزاني القائل إنها علامات لا ضمائر[33]."

ويقول في رده عن الموضوع والمحمول:" وإذا كان للجزء الأول اسم واحد عند المناطقة هو الموضوع، واسم واحد عند البيانيين هو المسند إليه، فلأن أنواعه لا تختلف بالنظر إلى الأحوال المبحوث عنها في ذينك العلمين اختلافا يقتضي تقسيما مثل التقسيم الواقع في علم النحو[34]."

والحقيقة أن هذين المصطلحين خاصان بعلم المنطق. أما مصطلح المسند إليه فهو من اصطلاحات سيبويه إذ عقد في كتابه " باب المسند إليه والمسند" إذن فهو مصطلح نحوي على اعتبار أن سيبويه إمام النحو. ويقول في رده عن اللجنة:" فكان على اللجنة إذ حكمت على الموضوع بالضم الدائم أن تستثني المثنى والجمع، لأنهما لا يظهر في آخرهما ضم، ولا شيء ينوب عن الضم"

ترى اللجنة أن يذكر في الجملة من ألفاظ من غير الموضوع والمحمول هو التكملة، وهو مصطلح واسع يضم كثيرا من الأبواب النحوية. فيرد عليها بقوله:" إذا كان الناشئ يلقن أغراض التكملة، وكان إعراب التكملة يستدعي ذكر الغرض منها. فإن اللجنة لم تأت بشئ سوى أنها استبدلت بالمصطلحات النحوية كلمات ليست بأوجز منها. ففي نحو: جاء زيد راكبا. يقول النحاة: راكبا: حال. وتقول اللجنة تكملة لبيان الحالة. فالذي ترى أن المصطلحات النحوية تشعر بالأغراض مع الإيجاز، فلا داعي إلى أن نستبدل بها مصطلحات أخرى[35]. "

حقيقة ضمير الغائب في القرآن

ألقى طه حسين محاضرة في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد عام 1928 ، عنوانها : " ضمير الغائب واستعماله اسم اشارة في القرآن " . نشرت ملخّصها مجلة الرابطة الشرقية. وقد ردّ عليه الشيخ بمقال تحت عنوان:" حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم "[36].

انطلق طه حسين من القاعدة النحوية التي تقول : " إن ضمير الغائب يعود على

مذكور يتقدّمه لفظا ورتبة ، ويجب أن يطابقه في التذكير والتأنيث ، وفي الإفراد والتثنية والجمع"[37].

ومما أورده طه حسين من الأمثلة :

- قال تعالى : (وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾) النساء. الضمير في (منه) يعود على صدقات ،وهي بمعنى الصداق .
- قال تعالى : (ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ صلے) المائدة . ضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من الكلام أي : العدل .
- قال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴿١٣﴾ صلے) هود . يعود ضمير الجماعة على الكفار من أهل مكة ، وفاعل افترى الرسول (ص) ، ومفعوله يرجع إلى القرآن .
- قال تعالى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٦١﴾ صلے) النحل . الهاء في عليها راجعة إلى الأرض
- قال تعالى : (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴿٢٢٩﴾ صلے) البقرة . ألف الاثنين يعود على الزوجين[38]

والحقيقة التي يجب أن نتقيد بها هي أن القرآن الكريم كله نصّ واحد ، ندرك مرجع الضمير فيه من السياق ، ومن أسباب النزول ، ومقاصد الكلام . وهو في أصله جاء بلسان عربي مبين . ويحسن أن نستشهد بقول ابن مالك : **الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب** . يقول الشيخ:" فكل ما جيء في القرآن مما يرجع إلى قانون تأليف الألفاظ، ووضع كل مفرد موضعه اللائق به، لا نتردد في أنه استعمال عربي فصيح، ولا نرتاب في أنه وارد وفق ما ينطق به فصحاء العرب من غير تجاف عنه، ولا تحرج منه(...) فإن تخيل أحد في جملة القرآن أنها حائدة عن مناهج الفصاحة، فليس له إلا أن يوجه طعنه فيما لم يرتضه منها إلى أصل اللسان العربي، وينفي عن هذا الاستعمال، إن شاء، رصف الفصاحة... وإذا أبدع القرآن..." يرى محمد الخضر حسين أن ما ورد في القرآن الكريم هو" مطابق لاستعمال العرب، وقد غفل عنه واضعو القواعد، ولا يسوغ لنا في حال أن نذهب إلى أن هذا الاستعمال من خصائص القرآن، ونعمل على أن نضع له نحوا خاصا[39].

وإذا أبدع القرآن فأعجز، فليس معنى هذا أنه خرج عن قوانين كلام العرب النحوية، وإنما هو الإبداع في تأليف المعاني، وصوغ الكلم في الأساليب الحكيمة، وهي- مع هذا- لا تخرج عن رعاية تلك القوانين[40] ."

نيابة الحروف بعضها عن بعض

ونختم بحديثه عن نيابة بعض الحروف عن بعض . فقد اختلف فيها النحاة ، بين مؤيد ومعارض . فالبصريون يرفضون النيابة ، والكوفيين أجازوها، وتبعهم بعض البصريين، لأن النيابة تصح في الأسماء والأفعال . يقول السيوطي: " علم مما حكي عن البصريين في هذه الأحرف الاقتصار على معنى واحد لكل حرف، فمذهبهم أن أحرف الجر، لا ينوب بعضها عن بعض بالقياس، كذلك أحرف الجزم، وما أوهم غير ذلك ، فإما مؤول تأويلا يقبله اللفظ، أو على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف أو على النيابة شذوذا[41] ."

ويرد الشيخ على هذه المسألة بقوله:" وإذا مشيت على هذا الوجه من القياس وقعت في لبس من القول، وأتيت بجمل تنبو عنها الفطرة العربية . فهل تفسر " في" بمعنى

" على" في قوله تعالى : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴿٧١﴾) طه ، وحمل (في) على معناها الوضعي أنكى في العذاب .

وهل تفسر " عن " بمعنى "في" في قوله تعالى : (فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾) الماعون ، فمن ذا الذي لايسهو في صلاته ؟ ولماذا شرع سجود السهو ؟

يقول:" وخلاصة هذا المبحث أن الحروف لا تستعمل إلا في معانيها الشائعة في كلام الفصحاء، فإذا وجه إليك كلام، ظهر لك أنه قد أنيب فيه حرف مكان حرف، فإنّ هناك تضميناً، و يبقى به الحرف على حقيقته المعروفة في الاستعمال[42]."

المراجـــع والهوامـــش

[1]- محمد مواعدة، محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار الحسينية للكتاب، ط2 ، دمشق1992، ص13 .

[2]- الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين ، شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب ، في 15 مجلّد، قام بجمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، الطبعة الأولى ، دار النوادر، دمشق ، 2010 م، 1431 هـ ، الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية،6/7 .

[3]- الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية،6/7.

[4]- الأعمال الكاملة، تونس وجامع الزيتونة 148/11.

[5]- محمد مواعدة، محمد الخضر حسين حياته وآثاره،مرجع سابق، ص 14.

[6]- نفسه، ص 73.

[7]- نفسه، ص 74.

[8]- الأعمال الكاملة ، كتابات حول محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر 36/14.

[9]- محمد مواعدة، محمد الخضر حسين حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 140.

[10]- الأعمال الكاملة ، تصدير الموسوعة ، ترجمة الامام محمد الخضر حسين، 52/1.

[11]- الأعمال الكاملة، الرحلات، مشاهد برلين، ص11.

[12]- نفسه، ص 12.

[13]- الأعمال الكاملة ، الشريعة الإسلامية 54/4.

[14]- مصطفى الشهابي، وفاة الشيخ محمد الخضر حسين، مجلة المجمع العلمي العربي، عدد 336/33.

[15]- نفسه، عدد 337/33.

[16]- أبو القاسم محمد كرو، محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر السابق، ص 80.

[17]- الأعمال الكاملة ، تراجم الرجال، 152/3.

[18]- الأعمال الكاملة ، رسائل الإصلاح ،252/5.

[19]- الأعمال الكاملة ، بلاغة القرآن، 240/2.

[20]- محمد الخضر حسين، القياس في اللغة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د.ت).

[21]- نفسه

[22]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 23/6.

[23]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 52/6.
[24]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 187/6.
[25]- إبراهيم مصطفى،إحياء النحو، لجنة التأليف والنشر،القاهرة،1937.ص 3،2.
[26]- الأعمال الكاملة،الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 6 /73.
[27]- الأعمال الكاملة، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، 74/9.
[28]- الأعمال الكاملة ، رسائل الإصلاح، 123/5
[29]- الأعمال الكاملة ، تراجم الرجال، 115/3.
[30]- الأعمال الكاملة ، تراجم الرجال، 259/6.
[31]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها 261/6،260.
[32]- مجلة المجمع المصري، عدد 188/6.
[33]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 189/6.
[34]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 263/6.
[35]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 271/6.
[36]- الأعمال الكاملة ، بلاغة القرآن، 79/2.
[37]- الأعمال الكاملة ، بلاغة القرآن، 85/2.
[38]- الأعمال الكاملة ، بلاغة القرآن، 113/2.
[39]- الأعمال الكاملة ، تراجم الرجال، 115/3.
[40]- الأعمال الكاملة ، تراجم الرجال، 83/3.
[41]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 31/6
[42]- الأعمال الكاملة، دراسات في اللغة العربية وتاريخها، 32/6.